الأمير عبد القادر في كتابات العسكريين الفرنسيين

Emir Abdelkader in the writings of the French military

بودن غانم [1]

[1] أستاذ محاضر (ب) ، المركز الجامعي مرسلي عبد الله – تيبازة- مخبر الدراسات التاريخية والاثرية

تاريخ الاستلام: 2021/02/22؛ **تاريخ القبول:** 2021/03/15

ملخص: اعتقد قادة جيش الاحتلال الفرنسي أن سقوط مدينة الجزائر مثّل سقوط كامل الجزائر لكنهم اصطدموا بشخصية الأمير عبد القادر الذي اختزل شعبا مؤمنا بوطنه وجهاده في سبيل تحريره، حيث أسس كيانا سياسيا على أنقاض الحكم العثماني في ظرف صعب على المستوى المحلي والإسلامي محاولا حماية الجزائريين، ورد الحملة العسكرية الاستعمارية الفرنسية.

وقد أرهق الأمير عبد القادر قادة جيش الاحتلال الفرنسي، وأفشل كل خططهم على مدار خمسة عشر عاما، وجعل جنرالات فرنسا يتنافسون على مجابهته لعلّهم يحظون بترقية مشرفة بهزيمتهم قائد عسكري قلّ نظيره في ذلك العصر، لذلك كثرت الكتابات حوله من قبل هؤلاء الضباط الذين شاهدوه في الميادين العسكرية المختلفة. وقد ساهم طول فترة مقاومته، وتعاقب القادة العسكرين الفرنسيين على قيادة الحرب ضده في كثرة الكتابات والمذكرات والمراسلات التي امتلأت بأخباره والتي اعترفت في غالبيتها بحنكته العسكرية والسياسية وقدراته التنظيمية للشعب وإنسانيته الراقية.

هذه الدراسة تتناول الكتابات العسكرية الفرنسية التي تمثل بيبليوغرافيا مهمة تؤرخ لمقاومة الأمير عبد القادر وتسجل مختلف صوره في نظر القادة العسكريين الفرنسيين.

الكلمات المفتاحية : الأمير عبد القادر، مقاومة، مذكرات، مراسلات، قدرات قتالية.

Abstract:

The leaders of the French occupation army believed that the fall of the city of Algiers represented the fall of the whole of Algeria, but they clashed with the personality of Emir Abdelkader, who protected the Algerians and repelled the French colonial military campaign. Emir Abdelkader has exhausted the leaders of the French occupation army, and failed all their plans for fifteen years, and this long period contributed to the abundance of writings about him.

This study deals with French military writings, which represent an important bibliography that chronicles the resistance of Emir Abdelkader and records his various forms in the eyes of the French military leaders.

Keywords: Emir Abdelkader, resistance, notes, correspondence, combat capabilities.

Résumé : Les dirigeants de l'armée d›occupation française pensaient que la chute de la ville d'Alger représentait la chute de toute l'Algérie, mais ils se heurtaient à la personnalité de l'émir Abdelkader, qui protégeait les Algériens et repoussait la campagne militaire coloniale française. L'émir Abdelkader a épuisé les chefs de l'armée d'occupation française, et a échoué tous leurs plans pendant quinze ans, et cette longue période a contribué à l›abondance d'écrits sur lui.

Cette étude traite des écrits militaires français, qui représentent une bibliographie importante qui fait la chronique de la résistance de l›émir Abdelkader et enregistre ses différentes formes aux yeux des chefs militaires français.

Mot-clés: Emir Abdelkader, résistance, notes, correspondance, capacités de combat.

مقدمة:

ألهمت شخصية الأمير عبد القادر الجزائري العدو بالكتابة عنه اعترافا بقدره وقدرته على عرقلة المشروع الاستعماري ردحا من الزمن، وافتكاكه الاعتراف بسلطته كسلطان للمسلمين ليس من قبل القادة العسكريين فقط وإنما من الحكومة الفرنسية ذاتها، فقد كان الأمير عبد القادر يحمل مشروعا وطنيا مناهضا للمشروع الاستعماري بتأسيس كيان جزائري مستقل يخلف الحكم العثماني، ويدافع عن مقومات الأمة وسيادتها وحدودها الجغرافية ضد الاحتلال الفرنسي، وكانت حدّة المواجهة العسكرية والمقاومة الوطنية قد دفعت العسكريين الفرنسيين إلى الاهتمام الكبير بشخصية الأمير عبد القادر الجزائري بالكتابة عنه وعن حروبه ضدهم، ويعالج المقال كيفية تناول العسكريين الفرنسيين لشخصية الأمير عبد القادر ونظرته للحرب والصلح ومعاملته للأسرى.

1- الكتابات العسكرية الفرنسية حول الأمير عبد القادر الجزائري:

كان قادة جيش الاحتلال الفرنسي بحكم المواجهة العسكرية أول من اصطدم بشخصية الأمير عبد القادر الذي اختزل شعبا مؤمنا بوطنه وجهاده في سبيل تحريره، فاختبروا قدراته القتالية وتنظيماته العسكرية، وعجزوا الواحد تلو الآخر عن إخماد مقاومته وتشتيت القبائل المناصرة له وإخضاعه للسلطة الاستعمارية، فبدأوا يكتبون ملاحظاتهم ومشاهداتهم الميدانية حول الأمير عبد القادر من باب الإعجاب أو من باب معرفة نقاط الضعف لتداركها بما يساهم في تسهيل هزيمته. فخصص العسكريون الفرنسيون والملحقون بهم وحتى المدنيون كتبا تتحدث عن الأمير عبد القادر فقط، وتحصر اهتمامها بشخصيته ومقاومته وعلاقاته مع القادة الفرنسيين في السلم والحرب، كما توجد كتب أخرى تتحدث عن الاحتلال الفرنسي للجزائر وتشير في فصل أو أكثر لمقاومة الأمير عبد القادر، وهي كتابات معتبرة جدا تعكس تأثير الأمير عبد القادر المجاهد والقائد المحنك على خصومه سواء الذين تزامنوا معه أو حتى الذين جاءوا في فترات لاحقة في نهاية القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين.

2- دراسة تحليلية لهذه الكتابات:

أ- من ناحية الكمية: إن الملاحظ على الكتابات العسكرية هو الكثرة خاصة أثناء فترة مقاومة الأمير عبد القادر وهي صادرة عن ضباط سامين لهم خبرة عسكرية وجدوا أنفسهم وقد أُرهقوا أمام شاب جزائري حاول إعادة التأسيس لمجتمع عربي، وخاض بضراوة حربا ضد فرنسا (Bellemare. A, 1863, p 1)، وأفشل كل خطط هؤلاء الضباط على مدار خمسة عشرة عاما مما ساهم في تأخير تنفيذ المشروع الاستعماري، وجعل جنرالات فرنسا يتنافسون على مجابهته لعلهم يحظون بترقية مشرفة بهزيمتهم قائد عسكري مسلم قلّ نظيره في ذلك العصر، حيث اعترف المارشال سولت(Soult) وزير الحربية الفرنسي سنة 1843 لأحد أصدقائه بأنه لا يوجد في العالم إلا ثلاثة رجال يمكن أن نصفهم بالكبار وكلّهم من العالم الإسلامي منهم الأمير عبد القادر (Bellemare. A, 1863, p 3)، لذلك كثرت الكتابات حوله من قبل هؤلاء الضباط الذين شاهدوه في الميادين العسكرية المختلفة، فصوّره البعض كقائد متعصب متعطش لسفك الدماء، واهتم البعض الآخر بإبراز قدراته القتالية والتنظيمية لأجل تكتيل أمة كاملة لطرد الفرنسيين بهدف كسب الرأي العام الفرنسي، ومحاولة إقناعه بفشلهم أمام قائد محنّك.

وقد ساهم طول فترة مقاومته، وتعاقب القادة العسكرين الفرنسيين على قيادة الحرب ضده بسبب فشلهم في القضاء على مقاومته في تزايد الكتابات والمذكرات والمراسلات التي امتلأت بأخباره وأخبار تنظيمات دولته ونمط حياته ومهاراته الفروسية والحربية، كما كتب الكثير من الأسرى الذين وقعوا تحت يده –على اختلاف رتبهم- ما شاهدوه من أخبار ومعلومات تمس كل جوانب الحياة الاجتماعية والعسكرية والروحية للأمير عبد القادر مما ساهم في كثرة المؤلفات حوله والتي تعكس بدورها اهتماما كبيرا من قبل العسكريين الفرنسيين والملحقين بهم بشخصية الأمير عبد القادر التي شكّلت تحدّيا كبيرا للمشروع الاستعماري، وبمقاومته ومتابعة حياته في المنفى، وإن الاهتمام بالشيء لآية على إجلاله وإكباره رغم أنه يمثل للفرنسيين العدو الأكثر صلابة.

وكان الضباط الفرنسيون-رغم أعمالهم الحربية- قد انشغلوا كثيرا في تقصي أخبار الأمير عبد القادر، والبحث عن أسرار قوته وتأثيره على الجماهير الجزائرية التي التفت حوله لذلك كان لهم نصيب الأسد من هذه الكتابات، حيث كان فشلهم أمامه أكبر دافع للاهتمام به، فهذا الكولونيل دي مونتانياك (Lucien de Montagnac) (1803-1854) قد ملأ رسائله (Lettres d'un soldat) بأخبار الأمير عبد القادر وجعل من ملاحقته له شغله الشاغل لعله يظفر بشرف الإمساك به لكن بدون فائدة أين تسبب في إبادة كامل فرقته العسكرية في سيدي ابراهيم ويهلك هو معها في 23 سبتمبر 1845 (المنتصر، 2010. ص 114).

وفي إطار الاستعلام عن تحركات الأمير عبد القادر جاءت مراسلات النقيب دوما (Daumas) الذي شغل منصب قنصل فرنسا في معسكر بناءً على معاهدة التافنة بين سنتي (1837 و1839)، ومختلف المراسلات التي كانت تتم بين الضباط الفرنسيين والتي خصصت أجزاءً معتبرة لأخبار الأمير عبد القادر كمراسلات المارشال بيجو (le maréchal Bugeaud) الذي عمل على احتواء مقاومة الأمير عبد القادر بمهادنته ثم اتباعه سياسة الأرض المحروقة ضد المقاومة في كل مكان من الجزائر، كما سجل ضباط جيش الاحتلال تفاصيل العمليات العسكرية ضد الأمير عبد القادر في كتبهم ومذكراتهم الشخصية مثل العقيد بيليسيي (Pellissier) في حولياته (Annales Algériennes) التي جاءت في ثلاثة

أجزاء تنتهي بنهاية مقاومة الأمير عبد القادر سنة 1847 لم يخلُ جزء منها من أخباره، بالإضافة إلى الجنرال دي باراي (Du Barail)(1820-1902) الذي خدم في وهران ومستغانم وشغل منصب وزير الحربية بين (1873-1874) سجل كل ملاحظاته والعمليات التي قام بها في كتاب من ثلاثة أجزاء بعنوان ذكرياتي (Mes souvenirs) ورد ذكر مقاومة الأمير عبد القادر بجميع مراحلها وتطوراتها في الجزء الأول الذي غطى الفترة الزمنية (1820-1851).

ولم تقتصر الكتابة عن الأمير عبد القادر على العسكريين فقط بل تعدتهم إلى الملحقين بالجيش كالمترجمين والأطباء المرافقين للحملات العسكرية والجواسيس والأسرى الذين سجلوا مشاهداتهم حول حياة الأمير وجيشه ومؤنه وعلاقاته بالسكان في مختلف القبائل، ومن هؤلاء نجد الدكتور بونافون (Bonnafont) (1805-1891) الطبيب العسكري الذي قضى اثني عشر عاما على رأس فريق الإسعاف الطبي بالجزائر، وشاهد معظم العمليات العسكرية الفرنسية مع الجزائريين، وكان قد شاهد الأمير عبد القادر أثناء معاهدة التافنة أين اصطحبه بيجو، وتمكن من تقديم وصف دقيق لشخصية الأمير عبد القادر في كتابه الذي جاء تحت عنوان "اثنا عشر عاما في الجزائر"، بالإضافة إلى أدريان بيربروجر (Aderien Berbrugger) المؤرخ والمستشرق والسياسي الذي قام برحلة استطلاعية إلى معسكر الأمير عبد القادر في البويرة (حمزة)، ونقل مشاهداته عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية للجزائريين، وقوات الأمير في كتاب بعنوان "رحلة إلى معسكر الأمير".

كما تطرقت كتب أخرى إلى عمليات التوسع الاستعماري وما صاحبها من مقاومة وطنية في مختلف مناطق الجزائر مع تركيز واضح على مقاومة الأمير عبد القادر بتخصيص فصول لها ولعلاقات الأمير واتصالاته بمختلف الضباط الفرنسيين. وما يلاحظ هو الزخم الكبير لهذه الكتابات التي تؤرخ للفترة (1830-1847) بحكم شراسة المقاومة الوطنية، والتنظيمات السياسية والعسكرية لدولة الأمير عبد القادر والتي لم يكن قادة جيش الاحتلال يتوقعونها بعد سقوط مدينة الجزائر مقر السلطة السياسية لذلك فإنها أسالت الكثير من الحبر مثلما اسالت الكثير من الدم من الجانبين.

ب- من ناحية الكيفية: تناول العسكريون الفرنسيون حياة الأمير عبد القادر من النشأة حتى الوفاة مع التركيز على الجوانب السياسية والعسكرية بحكم أن العلاقة القائمة بين الطرفين علاقة صراع سياسي وعسكري نتج عنه تأخر تنفيذ مشروع التوسع الاستعماري، وقد اعترف معظم هؤلاء الكتاب بعظمة الأمير عبد القادر العسكرية كحقيقة واقعة مع أنهم كانوا يبررون بها فشلهم في مجابهته وهزيمته حسب القاعدة التي تقول "عظمتك في عظمة عدوك"، حيث أرادوا أن يثبتوا لأنفسهم مكانة عالية لأنهم كانوا يحاربون خصما عنيدا وجديرا بهم (تشرشل، 1974. ص 7).

1-2 شخصية الأمير: اهتم العسكريون الفرنسيون كثيرا بشخصية الأمير عبد القادر واعترفوا بنبالة أصله الذي يفوق الأمراء الأوربيون على الطريقة القديمة، فهو العربي الوطني المحمدي ذو الرحمة التي تغلب التعصب، يحمل طموحا كبيرا لأنه كان يريد الاستقلال وتحقيق عظمة الشعب العربي (Brossard, 1838, p 14-15)، ووطنيته جعلته يتميز بالقداسة عند كل القبائل، لذلك كان ينتقل بحرية في كل مكان وبدون موكب ولا جيش (Fabar, 1847, p 76)، حيث استطاع منذ البداية خلال العمليات الأولى بوهران في شهر ماي 1832 البروز كقائد عسكري ناجح جذب إليه انتباه العرب، يُقْدم على الخطر بسخرية كبيرة (Bellemare. A, 1863, p 32-33)، لا تعيقه النيران ولا المنحدرات، تمكن بشجاعته وإيمانه ورجاله من محاربة فرنسا لمدة خمسة عشر عاما دون أن يتأثر بعدد جنودها، ودون أن ينهكه التعب من الحرب (klock, 1848, p 18).

كما اعترفوا للأمير بأنه كان سليل أسرة شريفة من الفرسان البواسل الذين فتحوا إفريقيا الشمالية وإسبانيا في القرن الثامن ميلادي...تشكلت روحه على مبادئ الدين الإسلامي، وتشكل قلبه على التقوى وحماس المرابطين، وجسده على كل المتاعب وحيل الحرب... وكان من أولئك الوطنيين الذين لا يتحملون قسوة العبودية إلا وهم يحلمون بشمس الحرية، لقد أصبح بإمكانه أن يرفع إلى جانب راية المستعبد المتمرد راية المؤمن المهدد في عقيدته، وأن يجهر مع كلمة الحرية السحرية بكلمة الدين الخالدة، فنادى بالجهاد. (Bongrain, 1864, p 15)

وكتب بيربروجر في رحلته لمعسكر الأمير أنه كان يهتم بالقراءة والمطالعة فقد وجد عنده في مجلسه حوالي ثلاثين مجلدا من الكتب (Berbrugger, 1839, p 30)، ويقول أنه بدأ ولم تكن له من ثروة سوى حصانه وسلاحه، وليس له ما يرفع من قيمته سوى تجريد العدو الذي يقتله في المعركة (Berbrugger, 1839, p 39)، وهي نفس الفكرة عند موريس دي بونقران (Maurice de Bongrain) الذي استقى معلوماته من العسكرين والأسرى الفرنسيين عندما كتب بشأن استحقاق الأمير الاحترام والتقدير: "كان رجلا استطاع طيلة أربعة عشر عاما ودون أن تكون له ثروة سوى إرادته، ومن سلطة سوى الكلمة أن يثير إفريقيا من أقصاها إلى أدناها، وأن يجنّد بذلك جموعا من (الأعداء) ويضع على المحك السمعة العريقة للجيوش الفرنسية، وأن يلفت إليه أنظار العالم المذهول" (Bongrain, 1864, p 16)

غير أن بيربروجر ينتقص من طموح الأمير فيضيف: "وبعد سنوات أصبح الإبن (النكرة) للمرابط سلطانا للعرب لأن لقب أمير المؤمنين لم يكن كافيا لطموحه" (Berbrugger, 1839, p 39)، وهي نفس الفكرة عند الجنرال بروصار (Brossard) الذي تحدث عن إخضاع الأمير لوهران والتيطري والجزائر، وقال بأنه اضطهد العرب حلفاء فرنسا، وتخلص من منافسيه

بالحرب والسلم ليبقى القوة الإسلامية الوحيدة في المنطقة، وتحول من مرابط بسيط وقائد لقبيلة إلى أمير سيّد على ثلاث مقاطعات وإلى سلطان منافس للمغرب وتونس ومسيطر على إفريقيا الشمالية. (Brossard, 1838, p 18-19)

لكن بيربروجر يعترف بأن هذا الزعيم كان دائما جديرا بحظوظ عالية، فهو لا يترك فرصة لخصمه حتى يهزمه ولا ييأس أبدا، بينما ينعته بالمتعصب الطموح المؤثر على المتدينين بعمق (Berbrugger, 1839, p 40)، وصحّح ما كان يُرَوَّج عن شخصية الأمير من أكاذيب في فرنسا باعترافه بأنه رجل متميز بمظهر الوداعة والحزن بمشاعر ذات طبيعة دينية، وجهه ورع يُذَكِّر المرء برؤوس الرهبان الجميلة في العصور الوسطى، تلك الرؤوس التي تُذَكِّر بالرهبان المحاربين في وسط ضجيج المعارك أو في السكينة المعتمة للأديرة. (Berbrugger, 1839, p 48)

وتتفق كل الكتابات على أن الأمير تميز منذ شبابه بقوة التأثير في مواطنيه، وببلاغته الخطابية، وبمهارته في المبارزة والفروسية، وبفكر حيّ منظم، وشجاعة كبيرة في المعارك، وأخلاق عالية بالنسبة لرجل عادي ورفيعة جدا بالنسبة لرجل دولة.

3- حروب الأمير وتنافس الضباط على مجابهته:

نادى الأمير بتطهير الأرض الإسلامية من المسيحيين وذلك بتجاوز كل الأحقاد القديمة بين القبائل الجزائرية لأجل خدمة القضية المقدسة والنهوض كرجل واحد ضد الكفار، وهو ما جعل الفرنسيين ينعتونه بالحزب الديني الذي جمع المرابطين ومختلف الزوايا المتواجدة في الجزائر وأعماق المغرب (Bellemare, 1863, p 42-43)، وقد أرجع العسكريون الفرنسيون قوته وقوة جيوشه إلى العامل الديني لأنه مكلف بمهمة تخليص الأرض الإسلامية من العرق المسيحي (Bellemare, 1863, p 151)، وهو ما جعل الجزائريين يلتفون حوله ويستميتون في الدفاع عن أرضهم "فكان الأمير بعد كل هزيمة يعود من جديد وأكثر قوة، وبدون أن يتغير موقفه، ويبقى سيّدا على المناطق البعيدة عن قذائفنا" (Bellemare, 1863, p 150)

وكانت كفاءته الحربية قد أعيت الجنرال بوايي (Boyer) وقلّلت من حركته، وأعطت الأمير الأمل بإخضاع كل القبائل (Bellemare, 1863, p 53)، مما أدى لاستبداله بالجنرال ديميشال (Desmichels) الذي وصل وهران في 23 أفريل 1833 وقرر مهاجمة الأمير في الكرمة في 26 ماي 1833 لكن العرب شدّدوا الخناق على الفرنسيين ولم يتراجعوا إلا أمام ضغط المدفعية الفرنسية، ويُرجع بيليسيي (Pellissier) عدم تحقيق نصر فرنسي بسبب الحذر ونقص الشجاعة لدى ديميشال (Pellissier, 1854, t1, p 347-348)، واعترف بيليسيي أن الأمير ودون أن يفقد الشجاعة من فشله أمامنا كان يعمل بنشاط لأجل تمركز القوات العربية لأن سلطته في ذلك الوقت لم يكن مُعترفا بها إلا في ضواحي معسكر وأراد توسيعها لتشمل كل حدود المقاطعة فأخضع تلمسان وعامل سكانها بلطف وكسب ثقتهم. (Pellissier, 1854, t1, p 353-354)

وكتب عنه الضابط السامي في قيادة الأركان ريني دي بان(René de la Tour-du-Pin) "رغم هزائمه فإن الأمير عبد القادر كان -بدون ضجيج ولا حرب- لا ينتزع (أراضينا) فحسب بل حتى رجالنا، فكانت القبائل المختلفة تهاجر من حدودنا لتنضم للأمير"، (Du Pin, 1846, p 6) ونفس الملاحظة كتبها الدكتور بونافون الملحق بالجيش الفرنسي حينما علّق على انتصارات الأمير سنة 1834 حيث قال: " كان الأمير يخرج من هزائمه بسرعة، وينتصر على الفرنسيين وحلفائهم فتتصاعد قوته... وأخضع تلمسان مجددا واستقبلته بحماس واضح" (Bonnafont, 1880, p 178). وبعد معاهدة ديميشال جاء تريزيل (Trézel) إلى وهران بأوامر تقضي باستئناف الحرب ضد الأمير حتى القضاء على قوته لكن رغم يقظة الجنرال تريزيل إلا أن قواته انهزمت ولم يترك الجزائريون لها فرصة للراحة، حيث خسر الفرنسيون (300) رجل وكل متاعهم، وعلّل الفرنسيون الهزيمة بالتفوق العددي للجزائريين، وكان لهذا النصر في المقطع صدى كبيرا في كامل الجزائر حيث انضمت القبائل المترددة إلى صف الأمير الذي لم يعرف التراجع أمام أي جنرال (Un soldat d'Afrique, 1907, p 128-129-130)، وأصبح قوة الأمير تزداد يوما بعد يوم ونظرا لكثرة الخسائر التي ضُبطت بـ(800) قتيل وفي مصدر آخر (300) قتيل و(200) جريح عُوِّض تريزيل بالجنرال دارلونج (d'Arlanges) لمحاربة الأمير (d'Ideville, 1882, p 11). ورغم محاولة تريزيل إضعاف الأمير بكسب الدوائر والزمالة في اتفاق الكرمة 16 جوان 1835 باعتراف زعمائهما بالسيادة الفرنسية إلا أن الأمير لم يُوقف الحرب التي كانت خسائرها معتبرة في الطرف الفرنسي أكثر من الجزائري (Pellissier, 1854, t1, p 458-459).

ومع نهاية سنة 1835 أصبح الأمير سيّدا على منطقة وهران، وحاول الجنرال دارلونج (d'Arlanges) القيام بعمل لتخفيف الضغط العسكري للأمير على المنطقة فقاد حملة من (11000) رجل في 25 نوفمبر 1835 لكنها لم تحقق نتائج كاملة، وبقي الأمير ينتقل بسهولة ويعيد تنظيم قواته. (Bonnafont, 1880, p 190) ويعترف الضابط ريني دي بان "كانت القوات الفرنسية تطارده بحذر خوفا من الخسائر بينما كان يتحرك بحرية في اتجاهات عدة، وإذا أُنهك من طرفنا يعود ويضربنا في الصميم" (Du Pin, 1846, p 12-13)، فالحكومة العامة سخّرت كل عملياتها في ملاحقة الأمير لكنها فشلت وأهلكت جيشها لأجل حظ قليل في الإمساك به، فقد تسبب الأمير في هلاك عشرة فيالق عسكرية دون أن تتمكن منه، وصرّحت الحكومة بأن الحظ وحده من سيساعدها في الإمساك به. (Fabar, 1847, p 82) فقد أعيت مقاومته القادة الفرنسيين لذلك دعوا منذ سنة

1835 إلى الحرب الشاملة، وكتبوا "أن الحملات السابقة لم تكن إلا وخزات دبوس لم تكن لها نتائج إلا تقوية العرب وجعلهم ينضمون للأمير. (Bellemare, 1863, p 117)

وأدخلت انتصاراته الضباط الفرنسيين في حالة تنافس سعيا وراء الرتب العسكرية، ومغامرات غير مضمونة النتائج لأجل الظفر عليه، وكان دي مونتانياك (Lucien de Montagnac) قد أُحبط من سرعة تحركات الأمير، ومن الحصول على المعلومات الموثوقة حول مكان وجوده، وهو ما جعله يتهور في ملاحقة الأمير في سيدي ابراهيم في شهر سبتمبر 1845 حتى هلك (المنتصر،2010. ص 114)، حيث بمجرد سماعه بوجود الأمير قرب الغزوات أين كان معسكر مونتانياك حتى خرج في 21 سبتمبر على رأس قوة مكونة من (550) رجلا و(62) خَيّالا لملاحقة بعض خيّالة الأمير فكان من أوائل الهالكين، وكتب بيليسيي عن الحادثة أن "جنودنا ماتوا بسبب التفوق العددي للخصم" (Pellissier, 1854, t 3, p 180-181).

وكان مونتانياك قد عبّر في رسالة له في 20 جانفي 1840 من وهران عن حالة الضجر من رؤية فشل الخطط والأساليب المتبعة ضد الأمير رغم فارق الإمكانيات معتبرا القبض عليه أمرا صعبا: "تعتقدون أيها القادة الشجعان أن طائر الصحراء ذلك سيبقى في انتظاركم حتى تقضوا عليه، لا هو ليس أحمقا بهذا القدر" (Montagnac, 1885, p 71)، وبعد خمس سنوات وفي رسالة بتاريخ 8 جانفي 1845 كتب: "تريدون القبض على عبد القادر وحبسه؟ أنتم مساكين. هذا الرجل تدفعه يد قوية، إنها يد الله. هذا الرجل لا يجد كل الأرض فسيحة بما يكفي له، ومع ذلك تعتقدون أن بإمكانكم حبسه كما يحبس أي مُهيِّج بائس؟ آه يا ألهي ينبغي القبض عليه قبل ذلك كله" (Montagnac, 1885, p 86). فهو بهذا يُعبّر عن الاحساس بالورطة في مواجهة قائد سريع التحرك وخبير بالأرض وبالسكان رغم تمركز العدو بمواقع مهيأة لمراقبة الأمير، (المنتصر،2010. ص 115) وهذا ما يعكس قدرات الأمير عبد القادر القتالية والتنظيمية وقدرته على التعبئة الشعبية لتجديد الجهاد رغم كل الخسائر في مختلف المعارك التي لم تعنِ في نظر الأمير نهاية الحرب، كما تدل في نفس الوقت على إرهاق قادة جيش الاحتلال وشعورهم باليأس من محاربة الأمير عبد القادر الذي كان يختزل في شخصه جهاد الشعب الجزائري ورجل الإجماع الوطني الرافض للوجود الأجنبي.

وأصبح الأمير عبد القادر ومحاربته محل اهتمام الحكومة الفرنسية ومطمح للضباط الفرنسيين في تحقيق البطولات الخارقة والأوسمة من خلال قيادة المعرك الحربية ضده فكتب موريس كونت دي ريسون (Maurice comte d'Hérisson):" أن أسر عبد القادر سيخيب الكثير من الآمال ويدمر الكثير من الطموحات. كيف يمكن أن يصبح البعض جنرالا أو حتى ماريشالا إذا ما أُسر عبد القادر وقضي على رأس (التمرد) وانتهت الحرب؟ ليس من ترقيات بغير المعارك". (Maurice, 1891, p 72)

ولضمان الانتصار على الجيش الفرنسي ألزم الأمير جيشه بالنظام الأوربي المحكم حين عزم على تكوين جيش عصري، وانتدب بعض المدرّسين الأجانب للقيام بهذه المهمة، واشترى الأسلحة الحديثة، وبنى مصانع الذخيرة والمدفعية وسك النقود (Un soldat d'Afrique, 1907, p 23)، وفي تلمسان أسس مصنعا للمدافع يديره أحد الإسبان، وفي مليانة كان له معملا للسلاح به عمال أوربيون. (Bellemare, 1863, p 228) وقد أشاد بيربروجر بسرعة حركة جيش الأمير التي جعلته ينتصر في كل مكان لكنه رغم ذلك يستهين بمحاولات الأمير إعطاء الصبغة الأوربية لجيشه إذ يراه لا يمثل إلا كتلة عمل غير خطيرة بالنسب لجنود منضبطين (Berbrugger, 1839, p 35-36) مما يعكس نزعة التفوق الفرنسية واحتقار ما عداها.

وأمام انتصارات الأمير كلّفت الحكومة الفرنسية قناصلها لديه بالتجسس على تحركاته في مختلف المجالات زمنها تعيين النقيب دوما (Daumas) قنصلا في معسكر في نوفمبر 1837 أين ملأ مراسلاته بكل ما يتعلق بحياة الأمير عبد القادر وتنظيماته وجيشه وحكومته والقبائل التابعة له، فقد كان رجل استعلامات للتعرف على خصوصيات الأمير وتحصيناته في تاقدمت ومليانة، وطرق تجنيده للنظاميين، ومصادر ماليته، وطرق تجارته، ومصادر المياه عنده والأراضي المزروعة، وعدد الفرسان والسلاح في حالة الحرب، وكل ما من شأنه أن يكون عنصر إحصاء يفيد فرنسا. (Yvers, 1912, p XVIII-XIX)

وعن الإعياء الذي تسبب فيه الأمير لقادة الجيش الفرنسي كتب النقيب فابار (Fabar) "كان اهتمام الوحدات العسكرية بين (1847-1846) ليس القبض على الأمير وإنما إرساء السلم وحماية القبائل المخلصة لنا، ومعاقبة (المتمردين) الثائرين، ولمنع الأمير من ضرب الأولى (المخلصين لفرنسا)، ومنعه من الاستقرار عند الثانية، فقد كان سيّدا على البلد بقدرة كبيرة على تعبئة كل السكان" (Fabar, 1847, p 80-81)

ونظرا لقوة الأمير وفشل القادة العسكريين الفرنسيين قرّرت الحكومة الفرنسية إرسال الجنرال بيجو بثلاثة فيالق (لتحرير) معسكر التافنة، ومحو الضعف الذي لحق بالجيش الفرنسي في المقطع، وإعادة الثقة إليه (d'Ideville, 1882, p 12)، ولأجل تحقيق ذلك ركّز بيجو على شن حرب مستمرة في كامل البلاد لإرهاق الأمير، وضربه في كل مكان لكي لا يترك له فرصة للأمن والراحة، وضرب أماكن النساء والأطفال والقطعان، ولإنجاح هذا المخطط اشترط أن تتوفر وهران على (15000) جندي مختارين بعناية مع توفير ضباط شاب يطمحون للوصول إلى مراتب سامية في الجيش (d'Ideville, 1882, p 47)

وكان بيجو قد عمل كل ما بوسعه لملاحقة الأمير منذ سنة 1839 في كل الوديان والجبال، (Bellemare, 1863,

p 274)، وقر الهجوم على مواقع الأمير التي تضم مخازن الطعام والسلاح، وزرع الخوف في القرى بالهجوم المفاجئ، وكانت القوات الفرنسية متتابعة في حملاتها في مطاردة العرب (المتمردين) لإجبارهم على الاستسلام حيث كان المخطط هو حملات متواصلة تدوم سبع سنوات شتاءً وصيفا.(Un soldat d'Afrique, 1907, p 152) وأصبح الجنرالات بيليسيي (Pellissier) مكماهون (Mac Mahon) راندون (Randon) بوسكي (Bosquet) كانروبار (Canrobert) سانت أرنو (Saint Arnaud) فيلون (Vaillant) بيدو (Bedeau) كامون (Camon) كافينياك (Canignac) شانقارنيي (Changarnier) لاموريسيار (Lamoricière) دوفيفيي (Duvivier) في تنافس على مجد ملاحقة الأمير وهزيمته لأنه يعتبر أكبر انتصار لهم. (Bellemare, 1863, p 275)

لذلك كان تنفيذ مخطط إسقاط الأمير عبد القادر صارما حيث استولى بيجو على مؤن مليانة والمدية، واستولى على بوغار وقصر البخاري ودمر ورشات الألبسة العسكرية التي أسسها الأمير، وفي تازة دمروا المطاحن فكانت حربا وحشية ولكنها الوسيلة الوحيدة لإسقاط (العدو)، كما تم الاستيلاء على تاقدمت ومعسكر وسعيدة، (Un soldat d'Afrique, 1907, p 154-155) وبعد سقوط الزمالة سنة 1843 لجأ الأمير إلى المغرب إلى غاية سنة 1845 حيث عبر واد التافنة في شهر سبتمبر وانتصر على مونتانياك وانتفضت الجزائر من جديد مما أدى لاستدعاء بيجو على عجل لقوات وصلت (106000) رجل لملاحقة الأمير بين التل والصحراء، وبقي يجول بين الفيالق الفرنسية دون أن تتمكن منه حتى اضطرته للعودة إلى المغرب في 18 جويلية 1846. (Bellemare, 1863, p 300-303) أين عاش تحت الضغط المغربي والحصار الفرنسي على الحدود الغربية مما اضطره لتوقيف حربه.

4- من الحرب إلى الصلح:

عمل الأمير في مواجهته لديميشال على استمالة بعض القبائل لعزله مما أدى لفشله في تحقيق نصر شامل في الغرب الجزائري والحد من قوة الأمير لذلك سيلجأ إلى طلب الصلح. ويعترف الجنرال بروصار بأن عجزهم أمام تحقيق نصر حاسم على الأمير هو ما جعلهم يلجأون إلى طلب الصلح فكتب: "أمام قوة الأمير قارنت فرنسا بين حرب طويلة ومنهكة وغير مضمونة النتائج أو صلح يضمن لها الاستقرار في المدن الساحلية مقابل امتيازات تجارية"، (Brossard, 1838, p 17) وادعى بأن الأمير قام بتحركات ضد فرنسا بواسطة تسامحها شبه الرسمي معه (Brossard, 1838, p 65).

وبدأت المراسلات الأولى بمبادرة من ديميشال بعد أسر الأمير لأربعة جنود فرنسيين فبعث ديميشال برسالة يطلب فيها بتحريريهم فرد الأمير بالرفض واعتبر بيليمار (Bellemare) أن هذا الرد بمثابة تحدٍّ متعال من الأمير استلزم جوابا فكان هجوم 2 ديسمبر 1833 في تامزوار (Bellemare, 1863, p 62-63) فتحرك الأمير بقواته مما أدى لتراجع القوات الفرنسية، وإعادة ديميشال الأسرى العرب للأمير، واعترف بيليسيي أن هجوم العرب كان عنيفا، وتساءل "هل أدرك العرب أن هذا التراجع شهادة على ضعفنا؟" (Pellissier, 1854, t 1, p 365)، ولم تثنِ قوات ديميشال عزم الأمير عبد القادر الذي كان يعرف كيف يُجنّد المحاربين لتعويض جيشه (Un soldat d'Afrique, 1907, p 125). وفعلا فإن ديميشال اقتنع بفشل حملاته فرغب في السلم، وكتب رسالة ثانية إلى الأمير في 6 ديسمبر 1833 (Pellissier, 1854, t 1, p 367) أعلن عن استعداده لاجتماع يصل إلى اتفاق يُوقف سفك الدماء بين الجزائريين والفرنسيين، وأصبح الأمير سيّد الموقف ووافق على الاقتراح بعد الرسالة الثالثة لديميشال لأنه بحاجة إلى سلام (Bellemare, 1863, p 64-65) لأجل وقف علاقات التفرقة والمعاكِسة لوحدة يريد تأسيسها للعرب (Pellissier, R. 1854, t 1: 364). وتمت المصادقة على صلح ديميشال في 26 فيفري 1834 الذي كان لصالح الأمير، وحدثت التهدئة في وهران (Pellissier, 1854, t 1, p 371)، هذه التهدئة التي يرى ديميشال وغيره من الفرنسيين وحتى بيجو فيما بعد أنها لم تكن لتتم إلا بالاعتراف بتأسيس حكومة أهلية قوية تشمل كل التوجهات الفردية يقبلها السكان، وفي نفس الوقت ليّنة تخضع للسلطة الفرنسية (Un soldat d'Afrique, 1907, p 126).

إذا كانت فرنسا قد اعترفت باستقلال الأمير ضمنيا على الأقل فإنها لم تحصل على الاعتراف بسيادتها على الجزائر وهو الأمر الذي كان يحرص عليه جميع المفاوضين الفرنسيين من دي ميشال إلى بيجو، ولم يسع المعلّقون الفرنسيون إلا أن يفسروا عبارة "بين شعبين حكم الله عليهما أن يعيشا تحت نفس السلطة" التي وردت في نص المعاهدة بأن دي ميشال كان يرمي من ورائها على الحصول من الأمير على الاعتراف بالسيادة الفرنسية لأن هذه السلطة في نظر دي ميشال هي السلطة الفرنسية، ولكن الأمير كان يريد من العبارة نفسها سلطة الإسلام والمشيئة الإلهية وسلطته هو". (تشرشل، 1974. ص 17)

يرى الجنرال بروصار أن الأمير استغل ظل الصلح ليوطّد قوته في كل المقاطعات التي تحت يده، وبدأ بدعم عرب قسنطينة باستثناء الذين هم بالصحراء إما مستقلين أو تابعين لأحمد باي (Brossard, 1838, p 28)، كما اعتبر آخرون صلح دي ميشال (Desmichels) خطأ كبيرا لأنه اعترف بالأمير عبد القادر كأمير للمؤمنين ومركز للمقاومة العربية، وكحامٍ سامي للفكرة الإسلامية يؤشر على جوازات مرور المسيحيين بقوة معتبرة تتزايد بفضل هذا الصلح (Plée, 1866, p 16) الذي كان موازيا للاعتراف باستقلال بايلك وهران، ومؤسسا لدولة عربية تحت سلطة عبد القادر، الذي نمت قوته وزادت سمعته مكانته وحرية حركته، وأخضع لسلطته كل وهران من الشلف

حتى المملكة المغربية، وزرع الأمل بنشر الأمن والتهدئة بين كل قبائل الشرق وسهل متيجة مما أدى لتراجع الكبرياء الفرنسي بسبب هذه الهزيمة (Un soldat d'Afrique, 1907, p 128)

كما اعتبر الدكتور بونافون أن صلح ديميشال كان السبب في تصاعد قوة الأمير وجعْله نِدّا للحكام العامين، وسببا في قذفهم بكلمات قبيحة كالتي قالها للمارشال دارلون (d'Erlon) "لك البحر ولي الأرض"، (Bonnafont, 1880, p 173) كما أطلق العنان لمشاريعه الطموحة لإخضاع مدينة الجزائر والتيطري ثم قسنطينة فيما بعد، واعترف قائلا:" إن الضعف الذي أصابنا حياله وتزايد قوته سمح له باستشعار قوته على كل الإيالة وكأنه يوغرطة جديد يحلم بطردنا" (Bonnafont, 1880, p 178)، لذلك لما جاء الجنرال درويي دالون (Drouet d'Erlon) إلى الحكومة العامة في جويلية 1834 تنكّر لاتفاقة ديمشال المخزية وعوّضه بالجنرال تريزيل نصير الغزو (d'Ideville, 1882, p 9).

5- معاهدة التافنة: 30 ماي 1837 اقتنع معظم القادة العسكريين الفرنسيين بأن معاهدة ديميشال كانت انتقاصا للقوة الفرنسية التي قهرتها مقاومة الأمير عبد القادر، وأجبرتها على تقديم التنازلات لذاك سعوا إلى التخلص منها، وكان اتفاق الكرمة 16 جوان 1835 بمثابة إسقاط لمعاهدة ديميشال (Bellemare, 1863, p 110) حيث تجدّدت الحرب ولم تتمكن فرنسا لا من إخماد مقاومة الأمير ولا من إخضاع قسنطينة لذلك رأت الحكومة ضرورة تحقيق السلم في الغرب لإخضاع الشرق فبدأت مفاوضات مع الأمير بداية من شهر فيفري 1837 لأجل إيقاف مؤقت للاحتلال في الوسط والغرب (d'Ideville, 1882, p 58) حيث أرسل بيجو مبعوثا إلى الأمير يطلب منه قبول السلم بشروط وإلا فالقتال بشدة فرفض الأمير الشروط الفرنسية (Bonnafont, 1880, p 259)، التي تمثلت في اعتراف الأمير بالسيادة الفرنسية، ودفع غرامة مالية، وتحديد سلطاته في الشلف (Bellemare, 1863, p 161).

لكن بيجو كان مستعجلا عن المفاوضة، ويريدها أن تنتهي بنجاح مهما كانت العواقب لأنه يسعى لتحقيق انتصار معنوي وسياسي خاصة وأن إجراءات حملة قسنطينة كانت تقتضي التوصل لاتفاق وهو ما تم فعلا حيث اُعترف بالأمير سلطانا على ثلثي الجزائر دون أن يعترف صراحة بالسيادة الفرنسية (تشرشل، ت. 1974: 21-20)، وعلّق الأسقف دوبوش (Dupuch) قائلا: "بواسطة معاهدة التافنة أصبح الأمير قائدا سيّدا تحت السيادة الفرنسية، وتستقبل فرنسا من عنده قائمين بالأعمال" (Dupuch, 1849, p 57)، وكتب البعض أن مجيء بيجو أدخل فرنسا في صلح التافنة المخزي حيث استحوذ الأمير على وهران بالكامل باستثناء مستغانم وأرزيو وأضاف بايلك التيطري ومعظم منطقة العاصمة، ولم يُبق لنا إلا المدينة والساحل وسهل المتيجة مقابل حرية التجارة وقبول السيادة الفرنسية بشكل غامض (Un soldat d'Afrique, 1907, p 131).

وعلّق الدكتور بونافون "مثل الماضي بقينا محاصرين في أرزيو ومستغانم، وبقي الأمير سيّدا على كل المناطق الواقعة خارج نطاق مدافعنا" (Bonnafont, 1880, p 285)، وكتب بيليمار أن معاهدة التافنة كانت خطأ استغله الأمير في التوسع مما تطلّب جهد سبع سنوات حرب وتسخير مائة ألف رجل لأول جيش في العالم للقضاء على ما دشّنه الأمير في ظرف سنتين وخمسة أشهر (Bellemare, 1863, p 161). كما انتقد النقيب بلان (Blanc) سياسة القيادة العليا للجيش التي أدت أخطاؤها إلى مد نفوذ الأمير وتمكينه من إخضاع القبائل الخارجة عن سلطته بسبب اعتراف معاهدتي ديميشال والتافنة بسلطة الأمير على معظم الجزائر. (Blanc, 1857, p 54-46)

6- لقاء الأمير مع بيجو: كان الجنرالات الفرنسيون الذين توافدوا خلال مراحل الحرب ينشدون بدون جدوى اللقاء مع الأمير عبد القادر الذي كلّف مواهبهم العسكرية غاليا، فقد أثار في صدورهم مشاعر الإعجاب البطولي، وكان بيجو من نال هذا الامتياز في 31 ماي 1837 حيث كان يرغب كثيرا في معرفة المرابط المحارب والقائد الذي هزم الجيش الفرنسي لسبع سنوات (d'Ideville, 1882, p 71)، رأى الأمير وهو محاط بـ (200) فارس عربي ويمتطي جوادا أسودا يقوده بمهارة عالية (تشرشل، ت. 1974: 121-120) و(d'Ideville, 1882, p 74)، وكتب الدكتور بونافون أن الجنود الفرنسيين كانوا ينتظرون بفارغ الصبر رؤية الأمير وهو الرجل المحارب الأبيّ الشجاع الذي شغل في ظرف سنوات إفريقيا وأوربا، وكان الأمير محاطا بحرس منظم أثناء لقائه ببيجو...وغادر الأمير في وسط بروتوكولات عسكرية منظمة (Bonnafont, 1880, p 273-278).

7- معاملة الأسرى:

وصف دي بونقران الأمير عبد القادر بكل حميد من الخصال ونبيل من الأخلاق مبديا إعجابه الكبير به كشخصية جديرة بالاحترام على الرغم من عداء الفرنسيين له، وذلك في كتابه أسرى دائرة الأمير (Les captifs de la dira d'Abdelkader, sidi Brahim et sidi Moussa 1845-1846, souvenir de la vie militaire en Afrique, Lille, Pris, 1864) حيث أورد وصف أحد الأسرى للأمير عبد القادر بعد معركة سيدي ابراهيم سبتمبر 1845 فكتب بما يعبّر عن مظاهر التبجيل والعظمة: "رجل بقامة معتدلة، يمشي بخطى ثابتة وظهر مقوّس، عليه هيئة التأمل، يحمل في يده سبحة تعكس تقوى المسلم، تتميز ملامحه بالهدوء وضحكته بالحزن، كلامه مختصر وسهل ونبرة صوته مدوية، شخصيته مغرية ومن المستحيل على من يعرفه ألا يحبه." (Bongrain, 1864, p 46)

ويروي أحد الأسرى الناجين من عملية الإعدام التي مست الجنود الفرنسيين في ليلة 24 و25 أفريل 1846 دون علم الأمير عبد القادر مشاعر الأسرى في حضوره بقوله: " كان الأمير الضمانة لسلامة الأسرى وليس التهديد الأول لحياتهم، فكلما كان الأمير قرب الأسرى، كان هؤلاء يشعرون بالاطمئنان، فحضوره يمثلنا، ونحن ننتمي إلى أمة عظيمة بينما بدون الأمير فإننا لن نكون إلا قطيع عبيد بين يدي منتصر (شرس) (Bongrain, 1864, p 48-49). فالأمير يشهد تاريخه الحربي على نبل أخلاقه وعلى حسن معاملته للأسرى حيث كان قد أعاد سنة 1838 ثمانين أسيرا بعد طلب أسقف مدينة الجزائر ذلك والذي أرسل مساعده الأب سوشيه (Suchet) للقيام بهذه المهمة، ونقل الأب سوشيه في تقرير له إعجابه بشخصية الأمير وكرمه وتقديره لرجال الدين فوصف ما رآه قائلا: " وجدته يجلس على الأرض بلا فراش وفي ملابس بسيطة لا يحمل سلاحا، على محيّاه مظاهر العظمة بتواضع، حينما يسكت يبدو عليه التفكير والاحتشام، ولكن عندما يتكلم تتحول حدقتاه بالتدريج إلى أن تصل إلى بريق أخّاذ، وحينما يتناول الحديث الديني يطرق قليلا ثم يرفع عينيه للسماء كأنه يتلقى الوحي". (عيسى، 1973 ص. 39) وخلال هذا اللقاء أذِن الأمير للأسقف بأن يرسل أحد القساوسة لأي مجموعة فرنسية تقع في الأسر لكي ترعاهم، فظروف الجهاد ضد الغزاة لم تمنع الأمير من التمسك بالأخلاقيات القتالية الفاضلة التي تعتبر نموذجا لسلوك حربي لم تبلغه بعض الدول المتحاربة. (عيسى، 1973 ص. 40)

وكتب أسقف مدينة الجزائر دوبوش (Dupuch) أن الأمير عبد القادر أرسل له في 21 ماي 1841 مائتي أسير وأمر بكسوتهم بلباس لائق مما أشعره بالخجل من ألا يفعل الشيء نفسه مع الأسرى الجزائريين (Dupuch, 1849, p 40-41)، وأضاف أن السجناء كانوا في كل صباح يذهبون إلى أم السلطان (الأمير عبد القادر) للحصول على الخبز والزيت والزبدة واللحم المخصص لإطعامهم، وكانت هي التي تحضره لهم وتعاملهم كأم لهم. (Dupuch, 1849, p 52)

ويروي أسير آخر معاملة عائلة الأمير وجنوده لهم بعد التوجه إلى المغرب الأقصى بقوله: " أخذونا إلى خيمة أم البطل المسلم التي استقبلتنا بكلمات عذبة وحكيمة وأخبرتنا أن هزيمتنا هي بإرادة الله القادر لأننا جلبنا التخريب لبلاد المسلمين، وأننا ربما بعد هذه العقوبة التي تكفّر عنا ذنبنا سنعود يوما إلى بلادنا وعائلاتنا، هذ الكلام الحازم والمشبوب بالعاطفة في نفس الوقت من أم قائد محبوب من المسلمين ردّ الأمل إلى قلوبنا، وأزال عنّا الخوف الذي شعرنا به...وفي كل مكان نمر به تبادرن النساء وفي أيديهن الخبز وتقمن بدعوتنا إلى تناوله بإلحاح وكرم." (Bongrain, 1864, p 56-57) كما تميز خلفاؤه بنفس الصفات الحميدة التي يتحلى به فاختيارهم كان على أساس الكفاءة والتكوين الديني، فالبوحميدي كان يحترم قوانين الحرب ويحافظ على حياة الأسرى الواقعين تحت يديه وقام ببيع قطعانه الخاصة لتغطية نفقاتهم على أن يفكر في قتلهم لتقليص تلك النفقات. (Bongrain, 1864, p 89)

خاتمة:

إن الكتابات العسكرية الفرنسية الغزيرة حول الأمير عبد القادر تعكس قوته الحربية وحنكته السياسية التي أجبرت القادة الفرنسيين على التوقف عند شخصيته ومقاومته للكتابة عنهما إنصافا له خاصة أثناء تواجده في المشرق العربي أين حظي بتقدير الكثير من المسيحيين خاصة الفرنسيين بعد أحداث الشام سنة 1860 أو إعجابا به وفق المنظور الاستعماري بكثرة الكتابة عن حروبه التي أرهق فيها القادة العسكريين لتبرير هزائمهم طيلة فترة مقاومته بحكم أنهم يجابهون قائدا عظيما ليس من السهل النيل منه.

وجد القادة العسكرين الفرنسيون في محاربة الأمير عبد القادر فرصة لإبراز بطولاتهم الحربية في توطيد الامبراطورية الفرنسية في شمال إفريقيا بما يعود عليهم بالفخر والشهرة أمام الرأي العام الفرنسي.

تعكس الكتابات العسكرية الفرنسية الحالة المعنوية السيئة التي عاشها مختلف الضباط والجنود الفرنسيون وهم يحاربون جيش الأمير عبد القادر دون أن يتمكنوا من هزيمته رغم خططهم وتدريبهم العصري وتفوقهم العددي والتقني، وهو الأمر الذي جعل بعضهم يقع في الأخطاء المهلكة.

كانت شخصية الأمير عبد القادر بخصائصها القيادية والحربية والإنسانية مصدر إلهام لأعدائه من الفرنسيين فتفتقت قرائحهم بالكتابة عنه، وخصصوا أوقاتا لذلك رغم ظروف الحرب، وملأ بعض الضباط رسائلهم اليومية ومراسلاتهم بأخباره هو فقط مما يعكس استحواذه على تفكيرهم واهتمامهم.

قائمة المصادر والمراجع:

باللغة العربية:

شارل هنري تشرشل، 1975، حياة الأمير عبد القادر، تر وتع: أبو القاسم سعد الله، الدار التونسية للنشر.

عيسى علي، 1973، «الأخلاقيات القتالية عند الأمير عبد القادر»، الأصالة، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر، ع 23، ص ص 35-41.

المنتصر عدنان، 2010، «الأمير عبد القادر في مذكرات العسكريين الفرنسيين في الجزائر، المصادر والتمثلات»، روافد، جامعة سوسة، تونس، ع15، ص ص 103-128.

باللغة الأجنبية:

Bellemare, A., (1863), Abd-el-Kader, sa vie politique et militaire, Paris librairie de l. Hachette

Berbrugger, A., (1839), Voyage au camp d'Abd-el-Kader à Hamza et aux montagnes de Wannourhah, Provence de Constantine en décembre 1837 et janvier 1838, Toulon, imprimerie d'Eugène Aurel

Blanc, C., (1857), Récits d'un officier d'Afrique, Tours.

Bonnafont, J.P.,(1880), Douze ans en Algérie 1830-1842, Paris, Dentu éditeur

Brossard, A., (1838), Mélanges sur l'Afrique, Perpignan: imprimerie de jean Baptiste Alzine

Dupuch, A.A., (1849), Abd-el-Kader au château d'Amboise, 2 éd. Bordeaux, imprimerie et lithographie de H. Faye

Fabar, P.D., (1847), l'Algérie et l'opinion, Paris, Corréard éditeur d'ouvrages militaires

Ideville H., (1882), le maréchal Bugeaud d'après sa correspondance intime et des documents inédits 1784-1849, t 3, Paris, librairie de Firmin-idot.

Klock, E., (1848), Portrait légende sur Abd-el-Kader, ses premières victoires, son arrivée à Toulon, Paris, Fiquet libraire-éditeur

De la Tour-du-Pin, R., (1846), Dernières opérations de l'armée d'Afrique, imprimerie de Beauvarlet

De Bongrain, M., (1864), Les captifs de la Deira d'Abd-el-Kader, Sidi Brahim et Sidi Moussa 1845-1846, souvenir de la vie militaire en Afrique.

D'Hérisson, M., (1891), la chasse à l'homme, Paris,.

De Montagnac, L., (1885), Lettres d'un soldat, neuf années de campagnes en Algérie, correspondance inédite du colonel de Paris,

Pellissier, E., (1854), Annales Algériennes.

Plée, L., (1866), Abd-el-Kader, nos soldats, nos généraux et la guerre d'Afrique, Paris, Gustave Barba libraire-éditeur.

Yver, G., (1912), Correspondances du capitaine Daumas consul à Mascara 1837-1839), Alger: Gouvernement général de l'Algérie.

S.A., (1907), Un soldat d'Afrique: l'Algérie. Edition Francaise.